العدد الثاني والعشرون
2005

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1373 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2005 مسيحي

- المادّية في فكر المذاهب المعاصرة
- مكوّنات البنية وسمات الخطاب
- الفتوى بين النصّ الفقهيّ والواقع
- حقوق الإنسان في الإسلام

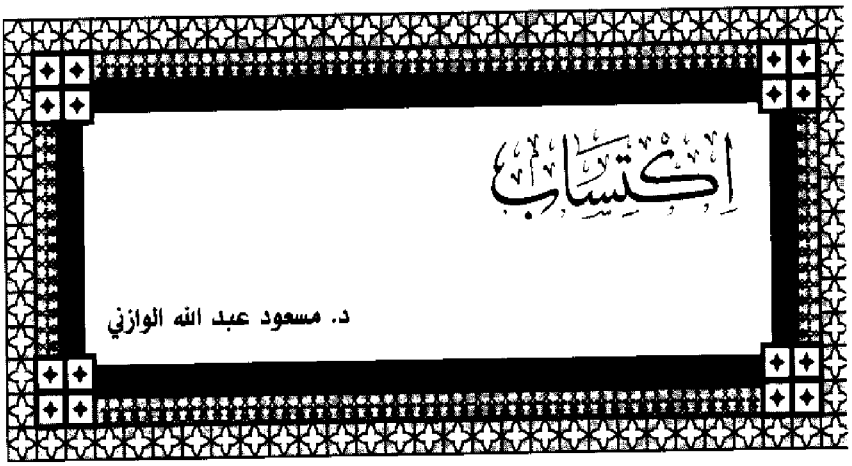

لم يعد لفظ الاكتساب أو الكسب مدلولاً لغوياً يدل على معنى كغيره من الألفاظ، أو مصطلحاً من بين المصطلحات يفصل بين فرع وآخر من فروع المعارف الإنسانية، وإنما أصبح نظرية أثارت جدلاً طويلاً بين علماء الكلام بعد أن أصبح للفظ علاقة بحرية الإرادة من عدمها في أداء الفعل الإنساني أو الحد على الأقل من تلك الحرية أو مصادرتها، وهذا ما جعله في بعض مراحل التاريخ يدخل حلبة الصراع. انتابته في كل مرحلة من تلك المراحل حركة مد وجزر كان في بعضها تعددياً ثم تحول الحوار إلى جدل أحادي الاتجاه غلبت عليه روح التعصب والتجني في تفنيد وجهة نظر الآخر وإقصائها، ووصف المخالف في الرأي بالمروق من الدين دون تقديم بديل أو رؤية جادة تكون حلاً موضوعياً للمشكلة من غير تعصب أو ميل في مسألة فرعية قابلة للأخذ والرد ومن غير أن يلزم أي طرف الطرف الآخر الأخذ بوجهة نظرٍ معينة والتنازل طوعاً أو كرهاً عن وجهة النظر الأخرى.

وقبل الدخول في نوع من التفاصيل قد يقال إن النظرية قامت أساساً على مدلول الكسب، وقطعاً لأي إعتراض، فإنه لا فرق بين مدلول الكسب والاكتساب، بل إن مدلول الاكتساب أقرب إلى النظرية، والأكثر حظاً كما سيتضح في هذه المحاولة المتواضعة.

وبشيء من التوضيح فقد ورد لفظ «**كسب واكتسب**» عند علماء اللغة بمعنى

واحد وهو طلب الرزق، كما ورد أيضاً أن لفظ «كسب» بمعنى أصاب واكتسب تصرف واجتهد، وإذا ثمة من فارق فإن الكسب يعني كَسَبَ الشيءَ بنفسه ولغيره اي يتعدي إلى مفعولين، فيقال كسبت فلاناً مالاً أي أكسبته[1]، أما اكتسب فهو خاص بنفسه.

وتبعاً لذلك فإن كل اكتساب كسب دون العكس. وقيل إن الكسب يحصل بأدنى مُلابسة حتى الهمِّ بالحسنة، أما الاكتساب فهو يستدعي البذل والمحاولة والمعاناة حتى قيل أن ليس للإنسان من نصيب إلا ما كان بسعيه ومعاناته وعمله[2]، وهذا المعنى يبدو أكثر وضوحاً وأدخل في النظرية من غيره ويزيده وضوحاً وتأكيداً أن الشر قد خص بالاكتساب والخير بالكسب بحسب ما ورد في الآية الكريمة: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[3] أما متى تحول هذا اللفظ إلى نظرية وما ترتب على ذلك من جدل فيصعب تحديد تلك الفترات المبكرة من التاريخ لأسباب يعود بعضها إلى تأخر مرحلة التدوين، وإلى تحديد أول من أثارها بالفعل، وذلك لتداخل نظرية الكسب في حد ذاتها مع مسائل الفعل، والجبر والاختيار، والقضاء والقدر، وحرية الإرادة والاستطاعة، والقدرة، والعدل الإلهي، وقد ضاعف من هذا التداخل صعوبة تحديد تلك الفترات المبكرة، كما ضاعف من تعميق الخلاف حول أي من تلك المسائل كانت أسبق في التداول بين علماء الكلام.

وحرصاً على ما ألزمته المجلة باختصار مادة المعارف الإسلامية فإنه يغلب على الظن أن خلق الأفعال كانت سجالاً بين القدرية والجبرية منذ أول الأمر، وأما أيهما أسبق فقد لا يكون التحديد دقيقاً في مسألة ربما كانت تعتمل في الصدور لدى كثيرين وإن لم تجد طريقها إلى الحوار العلني أو التدوين، وأياً كان الأمر فإن هنالك من يرى أن ما نسب إلى القدرية من القول بحرية الإنسان في خلق أفعاله لم يكن سوى ردة فعل على الجبرية الذين نسبوا كل ما يجري من حوادث على يد

---

(1) لمزيد الاطلاع ينظر القاموس المحيط للفيروز آبادي، وكذلك كتاب التعريفات للجرجاني، والكليات للكفوي، مادة كسب.

(2) الكليات «معجم المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي ط2/ 1981، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، القسم الأول 263 وما بعدها.

(3) سورة البقرة، الآية: 286.

الإنسان إلى الله حتى كادوا أن يصوروا الإنسان كالريشة المعلقة في مهب الريح سكونها وحركتها بفعل الهواء[4]، غير أنه وإن نَسَبَ لهم خصومهم هذا الرأي أو أنهم قالوا به على سبيل الاعتقاد، فهو لا يعدو أن يكون مسألة تنظيرية لا يجوز اتهامهم بالزيغ والضلال ما لم يكونوا قد طالبوا بتعطيل الحدود اعتماداً على القول بالجبر وهو ما لم يصدر عنهم أو ينقله أحد من المتحاملين عليهم، فضلاً عن أن الجهم بن صفوان قد أثار نوعاً من التمييز بين الإنسان والجماد اقترب فيه إلى حد ما من المذهب الكسبي، إذ لم يجعل الإنسان مجبراً جبر الحيوانات أو الجمادات الصماء، وإنما قد خلق الله فيه قوة بها يفعل وبها يريد، وخلق له اختياراً انفرد به دون غيره من الكائنات[5]، ومع ما قد يوحي به هذا الاستنتاج من معنى الكسب فسيبقى الجبر علامة مميزة على أتباع هذا الاتجاه لأنهم وضعوا الإنسان في مرتبة أدنى بكثير من تلك التي أرادها الله له بإغفالهم الآيات التي يبدو أثر الكسب فيها واضحاً.

أما المعتزلة فهم وإن كانوا امتداداً للقدرية إلا أنهم يختلفون عنهم في إثبات علم الله بأفعال العباد التي تقع في أوقاتها باختيارهم، وكانت أول خطوة لهم تفسيرهم الخلق بقولهم: إن خلق أحدنا لا يشبه خلق الله تعالى، فإن خلقه عز وجل يشتمل على الأجسام والأعراض[6]، وأما خلقنا فيتعلق بالتصرفات والأفعال التي يستجلب من ورائها نفع أو يستدفع بها ضرر[7]، إذ لا يمكن أن تكون الأفعال التي يباشرها الإنسان بقصد ويحتاج كل جزء فيها إلى تجديد عزم وإرادة كالأفعال المتولدة التي تهيأ وقوعها على الخطأ دون قصد وإرادة[8]، ومن تبنى القول بالجبر

---

(4) الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي، د. أشرف حافظ ط1/ 1999، دار النخلة تاجوراء ليبيا، ص21 ـ 22.

(5) أصول الدين البغدادي ط1/ 1928 اسطنبول 1/ 134.

(6) شرح الأصول الخمسة قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد، ط1/ 1965 مطبعة الاستقلال الكبرى، القاهرة 381.

(7) المصدر السابق ص368.

(8) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، الأشعري تحقيق محمد محي الدين ط1/ 1969 مكتبة النهضة المصرية 2/ 401 ـ 409.

كان عليه أن يجعل الفعل المتولد كسباً والمعلوم خلافه[9]، واختلفوا في حقيقة الاستطاعة المصاحبة لكسب الفعل هل هي مجرد الصحة والسلامة؟ أو هي عَرَضٌ منفصل عن الشخص المستطيع؟ أو هي جزء منه؟ وعلاقة ذلك الجبر أو الاختيار في كسب الفعل. وتجاوزاً لما روي من خلاف بين الفرق الإسلامية حول خلق الله لهذا العرض قبل مباشرة الفعل، وأثناء القيام به، فإن المعتزلة يرون الاستطاعة صفة ثابتة يحدث بها الفاعل ما يصدر عنه من أفعال، وهي متقدمة على الفعل، وهناك فئة قليلة ترى أنها تزول بانتهاء الفعل وتتجدد مع كل فعل جديد[10].

وحاول الأشعرية أن يتخذوا موقفاً وسطاً بين وجهتي نظر كل من الجبرية والمعتزلة في مسألة كسب الفعل، فقسموا الفعل الواحد إلى ثلاثة وجوه أو اعتبارات عقلية أحدهما إتقان الفعل وإحكامه، وثانيهما القدرة على تنفيذه وأخيراً الإرادة التي تختار واحداً من الممكنات، ووفقاً لهذا التصور فقد نسبوا تنفيذ الفعل إلى الله خلقاً وإيجاداً واختراعاً، وجعلوا بيد العبد الإرادة التي تتجه إلى كسب الفعل انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[11].

وقد تتابعت جهود الأشاعرة على يد كل من الباقلاني والبغدادي والغزالي في تحرير الفعل من شبهة الجبر بتقسيم الفعل بين قدرتين قديمة متعلقة بالخلق وهي من فعل الله، وحادثة في إيجاده وهي من فعل الإنسان[12]، وتقدم الجويني خطوة أخرى فقال: إن للإنسان اكتساباً لأفعاله، واستطاعة على الفعل، وبناهُ على امتناع التكليف بما لا يطاق مخالفاً بذلك قدماء الأشعرية الذين جوزوا التكليف بما لا يطاق[13]، ولكنه لو سئل عن الاستطاعة ستكون إجابته إنها من خلق الله، وبذلك فهم لم يتحرروا تماماً من قضية الجبر ما دامت الاستطاعة والقدرة والمقدور والاختيار من خلق الله وهو ما كان متوقعاً منهم لأن هدفهم لم يكن منذ أول الأمر

---

(9) شرح الأصول الخمسة ص396.

(10) المصدر السابق ص390.

(11) سورة الطور، الآية: 21.

(12) الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي ص58.

(13) «مناهج الأدلة في عقائد الملة ابن رشد» تحقيق د. محمود قاسم ط3/ 1969. مكتبة الأنجلو المصرية ص226.

حل مشكلة الجبر والاختيار وإنما كان رداً على من سبقهم فوقعوا فيما وقع فيه المعتزلة أو القدرية في ردهم على الجبرية، ولا يتصور حل قضية ما لم يلتزم الباحث الموضوعية والتجرد من ردة الفعل في معالجة أية فكرة سابقة.

ولم يرفض الماتريدية نظرية الكسب، ولكنهم كانوا أكثر توفيقاً ممن سبقهم حين ميزوا بين القدرة والاستطاعة، قدرة إلهية وتتمثل في قدرة الله على خلق الفعل واستطاعة إنسانية وتتمثل في قدرة الإنسان على القيام بالفعل[14]، وهذا الحل قد لا يبدو وجيهاً لأن الاستطاعة في النهاية هي من خلق الله، ولعلهم فيما ذهبوا إليه أخيراً من جعلهم القصد والاختيار سابقاً على الفعل، وهو من فعل الإنسان يعد أكثر توفيقاً وأقرب إلى الصواب من غيرهم، وأن اعترافهم بأن الفعل في حد ذاته من خلق الله لا يتعارض مع ميل الإنسان وقصدهِ ما دام الإنسان حراً في الاختيار وتكون الاستطاعة بذلك صالحة للضدين. ولم يبتعد الصوفية كثيراً عن أهل السنة من الأخذ بنظرية الكسب الأشعرية، وإذا كان هناك من تمييز فهو يعود إلى تسليم الصوفي نفسه للطاعة والانصراف عن الشهوات والأهواء والنزوات تحت شعار اعمل ولا تلتفت إلى ما يقال[15].

وحلاً لقضية الكسب حاول محي الدين بن عربي أن يخرج برأي جديد يخالف فيه كل من سبقه فنفى أن يكون للمخلوق أيّ أثر في الأعمال التي تظهر على يديه من حيث التكوين، واكتفى بأن خص المخلوق بالحكم، وأنكر على الناس الذين لا يفرقون بين الحكم والأثر، فالله حسب وجهة نظره إذا أراد إيجاد حركة أو معنى من الأمور التي لا يصح وجودها إلا في موادها أوجد المحل الذي يظهر فيه تكوين هذا الأمر لأنه لا يقوم بنفسه[16]، وبذلك لم يضف ابن عربي إلى نظرية الكسب جديداً سوى اللجوء إلى صياغة لفظية مبهمة هي عبارة عن صورة مقنعة للجبر.

ولم يكن الفلاسفة أسعد حظاً في حل مشكلة الكسب من غيرهم ولعل فيما

---

(14) الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي ص58.

(15) ينظر المصدرالسابق ص 62 وما بعدها.

(16) الفتوحات الملكية ابن عربي، ط1/ 1911 دار صادر بيروت 3/ 85.

ذهب إليه ابن رشد غنى، فقد أثر عنه أن الأفعال لا تتم إلا بأمرين ويعني بذلك أن الله تبارك وتعالى قد خلق في الإنسان قوى يتحقق بها اكتساب الأفعال، وجعل ذلك لا يتم إلا في ضوء موافقة ذلك للأسباب الخارجية وهو ما يسميه بعقيدة القدر، ومَثَّلَ لذلك بشيء مشتهىٰ يعرض للإنسان فيتحرك إليه بالضرورة من غير اختيار أو يطرأ عليه ما يدعو إلى الخوف فيهرب منه[17].

وهكذا فإن ابن رشد رغم أنه كان يهدف من وراء جمعه بين الظروف الموضوعية التي هي من خارج الإنسان والأسباب الداخلية التي عبر عنها بالإرادة أو القوى التي ينتج عن تلازمها الفعل إزالة التناقض الذي يبدو في نظره بين آيات الجبر والاختيار فهو لا يعدو أن يكون قد وقع هو الآخر في الجبر وإن لم يصرح بذلك.

ولو أن ابن رشد أو غيره ممن خاض في مسألة اكتساب الإنسان لفعله توقف عند قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾[18] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾[19]، لأدرك أن الله بمشيئته ورضاه خلق في الإنسان إرادة جعلها مناط التكليف وموضع المسؤولية ولم يرغم الله الإنسان في حدود ما يرضاه من الأعمال فحسب، وإنما ترك له حرية الاختيار وليس في ذلك ما يتعارض مع مشيئة الله لأن الله أراد للإنسان أن يكون حراً مختاراً، وليس له أن يبحث عن غيبه المستور ليكيف نفسه على حسبه وهو حين يحاول تنفيذ ما أمر الله به سيهديه الله ويسدد خطاه، ويشرح صدره وهذا حسبه في القضية التي تبدو حينئذ في واقعها يسيره واضحة بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته[20].

---

(17) ينظر مناهج الأدلة في عقائد الملة ص 228.

(18) سورة البقرة، الآية: 233.

(19) سورة النساء، الآية: 108.

(20) الإيمان «د. محمد ياسين ط1/ دار عمر بن الخطاب. د.ت، الإسكندرية ص77.